# سورية: لماذا «تيسير» وليس «إشراف» الأمم المتحدة؟

**■ حميدي العبدالله**

وردت عبارة «تيسير من الأمم المتحدة» في أكثر من فقرة في قرار مجلس الأمن الدولي الرقم 2254. وبديهي أنّ كلمة «تيسير» غير كلمة «إشراف» أو «بقيادة» الأمم المتحدة، وكلمة «إشراف» وردت مرة واحدة في البيان، وتحديداً عند الحديث عن الانتخابات التي ستجري في سورية في إطار ما سُمّي بالمرحلة الانتقالية.

واضح أنّ كلمة تيسير، ولا سيما التي جاءت في سياق الحديث عن «العملية السياسية التي تتولى الأمم المتحدة تيسيرها» لم يكن استخدامها دون غيرها من المفردات أمراً عفوياً، والأرجح أنّ روسيا كانت وراء انتقاء هذه المفردة والإصرار عليها، لأنّ هذه المفردة لم تكن واردة في مسودّة المشروع الأميركي، ومفردة «تيسير» يعني مساعدة الأطراف السورية، وحتى الدولية والإقليمية لإنجاز العملية السياسية، وهذا يعني أنّ دور الأمم المتحدة، سواءٍ عبر الوسيط الدولي أو أيّ شكل آخر قد يقرّه مجلس الأمن لاحقاً، يقتصر على مساندة الأطراف المعنية والتقريب بين وجهات نظرها، وليس فرض أيّ شيء عليها.

وبديهي أنّ هذا ينسجم مع كثير من الفقرات الواردة في قرار مجلس الأمن 2254، ولا سيما ما يتعلق منها بتشكيل «هيئة الحكم الانتقالية» التي شدّد قرار مجلس الأمن الجديد على أن «تعتمد في تشكيلها على الموافقة المتبادلة، مع كفالة استمرارية المؤسسات الحكومية»، وهذا يعني أنه لن يكون هناك أيّ إجراء إذا لم يوافق عليه الطرفان، الحكومة والمعارضة، كما أنه لن يكون هناك أيّ إجراء من شأنه أن يؤثر على «استمرارية المؤسسات الحكومية الحالية» وينحصر واجب ودور الأمم المتحدة، بإقناع الأطراف السورية المعنية بذلك، وليس فرض أيّ حلول عليهم، ومن شأن ذلك أن يجعل الأمم المتحدة وسيطاً مقبولاً لا سيما إذا التزمت بنص وروح القرار 2254، ولم تقم تحت ضغط الولايات المتحدة وحلفائها بالخروج عن النص، وعن العبارات المحددة التي لا تقبل التأويل.

يبدو أنّ روسيا وضعت نصب عينيها عند قراءة مسودّة المشروع الأميركي، الذي هو ثمرة حوار طويل بين المسؤولين الروس والأميركيين، وثمرة توازن القوى على الأرض، ولا سيما بعد إسهام روسيا في محاربة الإرهاب في سورية، أن لا تسمح بتمرير أيّ عبارة حمّالة أوجه أو غامضة، يمكن استغلالها لاحقاً لتنفيذ أهداف وأجندة لم يتمّ التوافق بشأنها، ولهذا جاءت عبارة تيسير وليس أيّ عبارة أخرى في تحديد ماهية دور الأمم المتحدة في العملية السياسية، لا سيما أنه يؤخذ على مؤسسات الأمم المتحدة، ولا سيما الأمانة العامة، رضوخها الكامل للإملاءات الأميركية وعملها الدائب على خدمة التوجيهات والمصالح الغربية، وليس مصالح المجتمع الدولي الذي يفترض بالأمم المتحدة أن تعبّر عنه.

# غباء أوباما وتذاكي سلمان وخبث أردوغان...

**■ سعدالله الخليل**

ربما يفسّر ما كشفه الصحافي الأميركي سيمور هيرش قبل أيام من خلاف بين البيت الأبيض ووكالة الاستخبارات الأميركية حول تعاطي واشنطن مع الملف السوري، بعضاً من التناقض في المواقف الأميركية حول سورية، خاصة في ما يتعلق بالمسار العسكري منها في ظلّ القناعة الأميركية والدولية المطلقة بأنه في السياسة لا إمكانية لدى واشنطن وحلفائها لتصنيع قوى وشخصيات قادرة على لعب أدوار سياسية مقبولة لدى الشارع السوري أكثر جاذبية من رضوان زيادة ومرح البقاعي وميشال كيلو بأجمل صورها.

كلام المستشار السابق في «البنتاغون» والذي كشف عنه هيرش يتطابق مع التحليلات الروسية والسورية، لما تصرّ واشنطن على تسميته برنامج سري أميركي لتسليح «المعتدلين» والذي تحوّل، بمساعدة تركية، إلى دعم للمتطرفين المسيطرين على المشهد المسلح في سورية بعيداً عن التصنيفات والمسميات كما يثير تساؤلات عن الأسباب الكامنة وراء إصرار أوباما على التمسُّك برأيه بوجود معتدلين يمكن لأميركا أن تدعمهم في سورية، وبإمكانية التحالف مع تركيا الداعم الرئيسي للأصولية ما وضع الرؤية الأميركية في المسار السعودي ـ التركي بمضاعفة دعم تنظيمات «النصرة» و«داعش» تحت مظلة الرئيس الأميركي أبو حسين أوباما.

ربما سقط أوباما في فخ ثعلب تنظيم الإخوان المسلمين رجب طيب أردوغان فتحركت جذوره الإسلامية لدعم فاتحي القرن الحادي والعشرين وانبهر برواية أردوغان عن أمجاد السلطنة، أو أغرته الأموال السعودية ففعلت الدراهم فعل المراهم في تليين عقله، وربما أتت التعليمات من تل أبيب حيث تلتقي مصالح الأطراف الثلاثة ليتخذ أسود البيت الأبيض قرارات تخالف معطيات هيئة الأركان المشتركة ووكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية وروسيا التي التقت على نقطة واحدة وهي أنه لا توجد معارضة معتدلة في سورية فكلهم إرهابيون يهدِّدون أميركا وروسيا وأوروبا.

على مدى سنوات الأزمة السورية الخمس التقت توجهات أوباما مع وجهات النظر التركية والسعودية بشكل تام ونجحت جهود الديبلوماسية الأميركية في منح الرياض ورقة تشكيل الوفد المعارض إلى المباحثات المقبلة مع دمشق فكان مؤتمر الرياض رصيداً إضافياً من الجعبة الأميركية فشلت في الحفاظ على مكاسبه بالإصرار على حصر التمثيل المعارض بأتباعها، ما دفع موسكو إلى إعادة الخطوة إلى كواليس الأمم المتحدة وتكليف الأمين العام المبعوث الأممي إلى سورية ستيفان دي ميستورا بمتابعة الملف.

آخر إبداعات المملكة السعودية التي باركها أوباما حلفٌ إسلامي لمكافحة الإرهاب يضم 32 دولة، في الشكل، انقسمت بين متورطة في دعم الإرهاب ومكتوية بناره لا حول لها ولا قوة في مكافحته على أراضيها، أما بقية الدول فهي لا تملك إمكانية المواجهة ولا تمتلك ما يسدّ رمق مواطنيها، وليكتمل المشهد ادّعى ملك الزهايمر سلمان دعم مكافحة الإرهاب، واصفاً الإرهاب بأنه لا دين له ولا وطن متناسياً جهود مملكته في إلباس الإرهاب لبوس الإرهاب.

خمس سنوات من عمر الأزمة السورية أثبتت التورط الأميركي ـ السعودي ـ التركي في ما يجري في سورية، إلا أنّ الأشهر الأخيرة كشفت أنّ رؤوس الحربة في الحرب على سورية وقادتها رئيس غبي وملك يحاول التذاكي وسلطان أحمق.

«توب نيوز»

# اغتيال القنطار وحلف بن سلمان

- **نفذت «إسرائيل» اغتيالها للقائد سمير القنطار عقب إعلان تفاهم نفطي مع تركيا، وبدء حملة منسّقة مع السعودية تستهدف حزب الله وتصنّفه إرهابياً وتلاحق رموزه ومؤسساته وتنشئ حلفاً ضدّ الإرهاب مهمته جمع المعلومات كما قال بن سلمان.**
- **نفذت «إسرائيل» اغتيال القائد عماد مغنية بعد حرب تموز، بعد اجتماع قادته غونداليسا بدلاً من سلمان وفي شرم الشيخ لتجميع المعلومات، وقالت إنّ مغنية يتصدّر الأهداف.**
- **قبل حرب تموز وقّعت تركيا مع «إسرائيل» مشروعاً شبيهاً لنقل النفط إلى حيفا، واليوم اتفاق لنقل الغاز من «إسرائيل».**
- **في إغتيال مغنية كان مخبرون من حركة حماس يبلغون الأتراك وهم ينقلون المعلومات لـ«إسرائيل»، وكانت دولة خليجية تنقل إلى واشنطن التعرّف على صورة لمغنية من أحد المطارات وتنقلها لـ«إسرائيل».**
- **في اغتيال القنطار مجموعات مسلحة تعمل للحساب التركي السعودي تعلن مسؤوليتها عن الاغتيال ومهمتها استخبارية واستطلاعية بالتأكيد.**
- **رحبت تركيا بحلف بن سلمان ويبدو إغتيال القنطار أول إنجازاته.**
- **تفاهموا على أنهم أضعف من صناعة نصر فقرّروا حرب استنزاف لتحسين شروط التفاوض وصولاً إلى تحجيم المقاومة ومكانتها.**

التعليق السياسي

---

# وصيّة القنطار... سندٌ للمقاومة وأهلها

**■ رامز مصطفى**

الوصية التي تركها سمير القنطار، ونشرتها المقاومة بعد استشهاده غيلة وغدراً على يد العدو الصهيوني، يقيني أنه قد خطها منذ عقود قد خلت، عندما صعد ورفاقه إلى زورقهم يمخرون عباب البحر ووجهة رحيلهم مدينة نهاريا على الساحل الفلسطيني المحتل. وصية خطها في زمن المقاومة الجميل، وحسبي كلّ أزمنتها جميلة، لأنّ فيها يتجسد طهر الانتماء والاختيار. طهر القضية الأعدل فلسطين. يومها كان القنطار في عجلة من أمره فآثر كتابتها برصاصات وجهها إلى صدر أعدائه وأعدائنا، على أمل أن يمهرها بدمائه الزكية، لكنّ القدر يومها أرغمه على التأجيل لأربعة عقود، قضى القنطار جلها في سجون الاحتلال، إلى أن حرّرته إرادة المقاومة التي فرضت نفسها على سجانيه وأرغمتهم على إطلاق سراحه في عملية «الرضوان» (اسم الشهيد الحاج عماد مغنية).

لم ينتظر القنطار يومها أو يفكر، فليس لديه متسع من الوقت، لأنه عاهد كلّ المؤمنين بحرية فلسطين بأنه لم يعد من فلسطين إلا لكي يعود إليها. وقال: «أصرّيت أن أكمل هذا الطريق، طريق الجهاد والتضحية»، وهو يؤمن بعمق بأنّ العودة إليها، سبيلها وطريقها هو المقاومة وأزيز الرصاص وصهوة جياد المقاومين. وكان له ما أراد وتجدَّد يقينه مرة أخرى، فسابق عميد الأسرى المحرَّر الزمن لأنه كان يُدرك أنّ الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

ما كان يقضّ مضجع سمير القنطار على الدوام، هو ذلك الظلم الواقع على فلسطين وأهلها، بسبب الاغتصاب الصهيوني الجاثم على أرضها منذ العام 1948، ولطالما كان يردّد في مجالسه وخطاباته وإطلالاته الإعلامية، «ما لم تتحرَّر فلسطين ليس هناك من قيامة لأمة إن كانت عربية أو إسلامية». وجملته الشهيرة التي كان يرددها «طالما إسرائيل موجودة، سنبقى نقاتل. وطالما قاتلنا سننتصر»، أي طالما أنّ «إسرائيل» تغتصب فلسطين فالمقاومة وقتالها باقٍ إلى أن تتحرّر. وهذه هي نقطة الفيصل في ما كانٍ يؤمن به القنطار، والتي عاد إليها شهيداً، تاركاً إياها أمانة لدى من هم أهلٌ للأمانة، بحسب ما جاء في وصيته، التي قال فيها (لأنّ في هذا الزمن لا أحد قادر أن يعوضنا عن شخصية وحضور وحكمة وشجاعة سماحة الأمين العام السيد حسن نصرالله. وأسأل الله عز وجل أن يديمه لهذه الأمة)، مضيفاً (أسأل الله أن أكون قد وفيت عهدي ووعدي لشهداء الوعد الصادق، لأهل فلسطين).

وصية سمير لا تختلف عن الوصايا التي كتبها سائر الشهداء، لكنّ ما ورد في وصية القنطار من كلمات وعبارات ومحدّدات لا لبس فيه للخيارات، ولما أشبعها من ثقة عالية لا تصدر إلاّ عن قامة شكلت علامة فارقة في حياتها ونضالها وجهادها ورؤى غير قابلة للتأويل أو التفسير من خارج فهمه وإيمانه، حيث خصّ قائد المقاومة بالقول «أشكر قائدنا في المقاومة الإسلامية سماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله، الذي من أعماق قلبي على الرعاية التي أحاطني بها فور تحرري من الأسر حتى لحظة شهادتي. وأشكره على وعده الصادق الذي بفضل الله وبفضله تحرَّرت من الأسر».

ما أكده جنرال الشهداء سمير القنطارٍ في تلك الوصية التي أضحت سنداً للمقاومة وأهلها، الذين خاطبهم بالقول (إنّ الله أعزّني وجعلني واحداً من رجال المقاومة الإسلامية، وبين إخوة أخذوا على عاتقهم القتال بعناد ورفض المساومة والتراجع). وإلى محبيها وداعميها، بقوله: (لكلّ المحبين لهذه المقاومة أنّ شهادتي وشهادة أي أخ في هذا الخط على يد العدو الصهيوني تعتبر دافعاً إضافياً لهذه المسيرة إلى الأمام).

لتأتي شهادته التتويج لتلك الرؤى والخيارات، بأنّ (النصر الكامل وإزالة هذا الكيان الصهيوني من الوجود يحتاج إلى تضحيات أكثر من التي قُدمت حتى الآن). فترجم أقواله بالأفعال في دفع ضريبة كفاحه وجهاده بالدم والاستشهاد في سبيل القضية الأقدس والأسمى والأوضح والأعدل، قضية المقاومة وقضية فلسطين، بقوله (اليوم أعزّني الله بهذه الشهادة التي أسأله أن يتقبلها، فإنني أمضي وأنا على ثقة بأنّ هذه المسيرة الجهادية لن تتوقف ولن تتراجع ولن تحيد عن بوصلتها فلسطين).

ما جاء في الوصية يؤكد ما أدركه شهيد فلسطين ولبنان والأمة بشكل مسبق، أنّ من بين ثنايانا من سيخرج شامتاً ومشككاً ومحرضاً على المقاومة، ناكراً ومستنكراً تضحياتها وهم مرضى. فأراد شهيدنا الكبير ومن موقع المتيقن والعارف والمؤمن أن يترك أمر ردّ المقاومة وقيادتها على اغتياله من قبل العدو الصهيوني، رهن تقييمها وتقديرها وتحديدها للزمان والمكان المناسبين، وإخراج مسألة ردّ المقاومة من سياق المزايدة عليها وعلى قيادتها وسيدها، وهذا بتقديري يقع في مقدمة الكلام الهام والمهم جداً الذي جاء في وصيته. وهذا ما أفرد إليه في الوصية من حيز واسع، حين قال: «هذا العدو يتوهم أنه بقتلنا قد يجر المقاومة إلى مواجهة هو اختار زمانها ومكانها»، مؤكداً أنّ «قيادة المقاومة وعلى رأسها سماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله تعرف وبدقة متى وكيف تردّ على جرائم العدو، وتدرك بمسؤولية تجنب الانجرار إلى معركة العدو حدّد زمانها ومكانها، فلا أحد يشتبه بجدية المقاومة»، ويدعو هؤلاء المشككين بقدرات المقاومة وردها، ليقول لهم «لا أحد يشتبه بجدية المقاومة، وإنّ كلّ دماء المقاومين عزيزة وغالية، وإنّ الردّ والانتقام الفوريين يكونان فقط إذا أضافا إنجازاً إلى رصيد المقاومة وجنّباها الانجرار إلى معركة حدّد زمانها ومكانها العدو الغاصب وقصد من هذا الاغتيال ذلك». ويجدد ثقته بأنّ الرد على جريمة اغتياله قادمة لا محالة حين كتب قائلاً: «دماؤنا متساوية وقيادتنا حكيمة هكذا أثبتت التجارب الماضية، وعيوننا تنظر إلى البعيد، إلى تحقيق الهدف الأكبر لنصر الله لنا على عدونا الظالم». وختم جنرال الشهادة والشهداء سمير القنطار وصيته المفعمة بالثقة والمحبة والتقدير للسيد حسن نصر الله في دعوته الجميع إلى أن يردِّدوا بأعلى الصوت «لبيك يا نصر الله».

---

# ليلة الكريسماس هل هي ليلة القدر؟ تعالوا نناقش المسألة بعقل مفتوح...

**■ وضاح صائب**

« إنّا أنزلناه في ليلة القدر* وما أدراك ما ليلة القدر* ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر * تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر «صدق الله العظيم، سورة القدر، الخامسة والعشرون في ترتيب النزول...

اتفقت كلّ تفاسير القرآن الكريم بدءاً من الطبري، وكذا ترجمات القرآن إلى لغات أخرى، أنّ «أنزلناه» تعني: «أنزلنا القرآن»، وحيث أنّ نزول أول آية على الرسول الكريم حصل في رمضان، الشهر الذي اعتاد، مثل غيره من المتحنّفين الكثر، على الانقطاع فيه للتفكّر في الكون وخالقه، فقد اعتبرت ليلة القدر واقعة في شهر رمضان...

وقد كان ذلك، في ما نعلم، بالاستناد إلى قول لابن عبّاس، وليس حديثاً منسوباً للرسول، جاء فيه: «أنزل القرآن في ليلة القدر في شهرٍ رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثمّ أنزل نجوماً...»

على أنّ أقوالاً أخرى اعتبرت أنّ ليلة القدر هي ليلة النصف من شعبان، إلاّ أنّ المفسّرين القدامى اعترضوا على ذلك بشدّة وأهملوه...

لكنّ هؤلاء المفسّرين احتاروا في تحديد أيّة ليلة من رمضان هي ليلة القدر، فذهبوا مذاهب شتّى، وتضاربت أقوالهم كثيراً، ونسبوا أحاديث متضاربة ومتناقضة للرسول وللصحابة والتابعين وغيرهم، كلٌّ حسب ما عنّ له وما استند إليه من مرجع، وقد قام د. بسّام الجمل في كتابه «ليلة القدر في المتخيّل الإسلامي» بحصر هذه الأقوال المتضاربة، فبيّن لنا أنّ ثمّة مَن ذكرها في الليلة الأولى من شهر رمضان (تفسير الطبرسي، وتفسير الرازي، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، والآلوسي في روح المعاني، وذلك في حديث راويه ابن رزين العقيلي)، وثمّة مَن ذكرها في ليلة الرابع عشر من رمضان (ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، بعبارة رُوي)، وفي ليلة السابع عشر من رمضان (سنن أبي داود، وتفسير ابن كثير في حديث للرسول رواه ابن مسعود، وتفسير الطبرسي، وتفسير الرازي، في رواية عن الحسن البصري)، وفي ليلة التاسع عشر من رمضان (تفسير الطبرسي في رواية عن جعفر الصادق، وتفسير الرازي في رواية عن أنس بن مالك عن الرسول، وتفسير القرطبي بعبارة «قيل»، وتفسير ابن كثير في رواية عن علي بن أبي طالب وابن مسعود)، وفي ليلة الحادي والعشرين من رمضان (التبيان للطوسي بعبارة «قال أصحابنا»، وتفسير الطبرسي في رواية عن أبي جعفر، وتفسير الرازي في رواية عن محمد بن اسحق، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير في رواية عن الرسول)، وفي ليلة الثاني والعشرين من رمضان (سنن أبي داود عن الرسول، والتبيان للطوسي بعبارة «قال أصحابنا»)، وفي ليلة الثالث والعشرين من رمضان (تفسير الطبرسي، وتفسير القرطبي في رواية عن الرسول، وتفسير الرازي في رواية عن ابن عبّاس)، وفي ليلة الرابع والعشرين من رمضان (تفسير الرازي عن ابن مسعود، وتفسير القرطبي عن الحسن البصري، وتفسير ابن كثير عن الرسول برواية أبي سعيد الخدري، وروح المعاني للآلوسي عن الرسول برواية بلال)، وفي ليلة الخامس والعشرين من رمضان (التبيان للطوسي بعبارة «جوّز قومٌ»، وتفسير الطبرسي، وتفسير القرطبي عن الرسول، وتفسير الرازي عن أبي ذر الغفاري)، وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان (تفسير الطبرسي، وتفسير الرازي، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير برواية أبيّ بن كعب، وتفسير الطبرسي مرّة أخرى عن عائشة وابن عبّاس وابن عمر، وتفسير القرطبي مرّة ثانية عن الرسول، وتفسير الزمخشري بعبارة «أكثر القول»)، وفي ليلة التاسع والعشرين من رمضان (التبيان للطوسي بعبارة «جوّز قوم»، وتفسير الطبرسي عن الرسول، وتفسير الطبرسي مرّة ثانية، وتفسير ابن كثير بعبارةٍ «قيل»، وتفسير الرازي بعبارة «قال بعضهم»)، وأخيراً في ليلة الثلاثين من رمضان (تفسير ابن كثير عن الرسول، والسراج المنير للشربيني بعبارة «قيل»)، مع أنّ رمضان قد لا يكمل ثلاثين يوماً معظم السنوات...

ويؤكّد لنا الباحث أنّ هذه الأحاديث نسبت إلى الرسول في زمن متأخر عن عهد الدعوة، وأنّ جلّها وردت في التفاسير المصنّفة في القرن السادس الهجري والقرون التالية له، وهذا واضح من استعراضها أعلاه...

أمّا البخاري فانفرد بحديث منسوب لعائشة أنّ النبي قال: تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»... في خلط أكبر للأمور، يصعّب المسألة ولا يهوّنها... من ناحية ثانية، أورد مسلم وأحمد والنسائي والترمذي وأبو داود وابن حبّان، حديثاً يفيد أنّ أهمّ علامات ليلة القدر أنّ الشمس تشرق في الصبيحة التالية لليلة القدر لا شعاع لها...

ويبدو أنّ الحديث سالف الذكر الذي انفرد به البخاري طغى على ما سواه، وبات على امتداد أكثر من ألف سنّة ونيّف، مستنداً لكلّ المسلمين في أصقاع الأرض المختلفة، دوناً عن الأحاديث الأخرى، ليقوموا بتكثيف عباداتهم في الليالي الوتر في العشر الأواخر من كلّ رمضان، لاحتمال وقوع ليلة القدر في إحداها، وبالتالي كسب أجر يعادل عبادة ألف شهر، أيّ ما يزيد عن أربعة وثمانين عاماً، كما لو كان الإله الجليل يعلن عمّا يشبه موسم التنزيلات على الثواب والأجر في هذا الموسم، ممّا لا يليق بمقامه الجليل، ولا مع جوهر رسالاته التي أكّدت أنّ الإيمان والعمل الصالح هما أساس مرضاته، لا أداء وتكرار طقوس ميكانيكيّة، ننساها ما إن نفرغ منها، متوهّمين أنّنا أدّينا واجباً صغيراً ونلنا أجراً كبيراً يغفر لنا خطايانا وسلوكيّاتنا اليوميّة والمعاشيّة المنافية لأوامر الإله الجليل الأخرى...

أمّا الحديث الآخر الذي أجمع عليه مسلم وأحمد والنسائي والترمذي وأبو داود وابن حبّان، فلم يعره المسلمون أدنى اهتمام، ولم يكن مرجعاً لهم في إثبات ليلة القدر، ولا ربطوه بحديث البخاري، ولا بالأحاديث والأقوال الأخرى، ربّما لأنّ أحداً لم يلحظ على مرّ السنين أنّ الشمس بزغت لا شعاع لها صبيحة أحد أيّام العشر الأواخر من رمضان...

روحانيّاً، من الجيّد والمريح للنفس البشريّة زيادة العبادات والتقرّب إلى الله، وهذه عملية مستديمة لا تنحصر بليلة دون سواها بالضرورة، شريطة أن لا تكون بديلاً عن سلوكيّات سيّئة، أو تعويضاً وطلباً لغفران خطايانا التي باتت طابع سلوكياتنا وأساس قناعاتنا المعاكسة لجوهر الدين...

ولكن، هل هذا الفهم صحيح؟ وهل تقع ليلة القدر في رمضان بالضرورة؟ وهل كونها (خيرٌ من ألف شهر) تعني أنّ أجر العبادة فيها يعادل أجر عبادة ألف شهر؟ ألا يمكن أن تكون ليلة القدر في شهر آخر، غير رمضان بالضرورة، وبالتالي يفوّت المسلمون أجرها وثوابها، بمعزل عن صوابيّة اكتساب هذا الأجر والثواب؟

سوف يجيبنا أيّ مسلم بأنّ ما تواتر نقله في الموروث الإسلامي، رغم تناقضه وتضاربه، قد حسم الإجابات على هذه الأسئلة، بما لا يحتاج معه لإعادة النظر والتفكير في ما يعدّه حقائق ومسلّمات وبديهيّات عاشها ومارسها أسلافه وآباؤه الأولون...

ولسنا هنا ننكر أنّ هذا ما وجدنا عليه آباءنا من فهم محدّد مسبقاً لنصوص الكتاب الكريم، لكنّنا نرغب في إعمال العقل الذي وهبنا الله وأمرنا بإعماله وتدبّر قرآنه وفهمه الفهم الصحيح، وتحرّي أيّ الأحاديث صحيح، إنْ كانٍ بينها ما هو كذلك، لنصل إلى نتائج محكمة، إمّا أن تؤكّد فهم السلف وما هو دارجٍ في عقول المسلمين وسلوكيّاتهم، أو أن تنير لنا فهماً آخر، جديداً، أكثر اقتراباً من المعاني التي أرادها الله؟

الآية تقول: «إنّا أنزلناه في ليلة القدر»... أنزلنا ماذا؟ علامَ تعود هاء الإضافة هنا؟ كما أسلفنا فإنّ تفاسير السلف بدءاً من الطبري، قالت إنّها تعود على القرآن، أي إنّا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، دون أيّ سند أو دليل واضح على هذا المعنى، باستثناء رأي ابن عبّاس، أو على العلاقة بين السورة وتنزيل القرآن، مع أنّ الآية لم تترك الأمر دون توضيح، فأوردت «تنزّل الملائكة والروح فيها» وهذه العبارة هي مفتاح الفهم الصحيح، والتفسير الحاسم لعبارةٍ «أنزلناه» من حيث أنّ القرآن مبينٌ واضح لا يترك لبساً، وهو ما تؤكّده سورة الدخان، فحينٍ أراد الله الإشارة إلى تنزيل القرآن، جعل ذلك واضحاً إذ قال «حم× والكتاب المبين× إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منذرين...»

وقد كانت سورة القدر أوّل سورة يرد فيها لفظ الروح، التي عاد المفسرّون فأولوها «نزلت الملائكة وجبريل فيها لتبليغ الرسالة للنبي في الليلة الأولى للوحي» لتبرير تفسيرهم...

لكنّ القرآن لم يحصر معنى الروح بجبريل فقط، بل أوردها بأكثر من معنى ومفهوم، ففي المرّة الثانية التي وردت فيها كلمة الروح، جاءت في سورة ص الثامنة والثلاثين ترتيباً: «فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين 72 والروح هنا لا تعني جبريل، ولا نسمة الحياة كما جاء في التوراة، وإنّما تعني ملكات العقل والحكمة والإرادة التي اختصٍ بها الله آدم الذي اصطفاه ليجعل منه إنساناً عاقلاً مكلّفاً.

ثمّ عادت الكلمةٍ لترد بعد ذلك في سورة مريم الرابعةٍ والأربعين ترتيباً «فأرسلنا لها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّا» وهذه تقبل الإشارة إلى جبريل كأحد الأدوات التي يستخدمها الله لتحقيق مراده وإرادته، ومثلها في سورة الشعراء السابعة والأربعين ترتيباً: «وإنّه لتنزيل ربّ العالمين* نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين...

ثم عادت لترد في سورة الإسراء الخمسين ترتيباً «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربّي، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا»، والروح هنا قطعاً لا تعني جبريل، لذلك لم يجب النبي فوراً حين سألته قريش بتحريض من يهود يثرب، بل آثر انتظار الوحي لتقديم الإجابة الصحيحة، وهي هنا تعني إمّا ملكات العقل والحكمة والإرادة، كما جاءت في سورة ص، والتي أكّدها في سورة الحجر، الرابعة والخمسين ترتيباً: «فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي، فقعوا له ساجدين 29، أو تعني النبوّة والرسالة السماويّة، من حيث أنّ اليهود استنكروا رسالة محمد معتبرين رسالة موسى لوحدها كافية للبشر، لا حاجة لرسالة بعدها، وهو المعنى الذي أكّده بعد ذلك في سورة غافر الستين ترتيباً: «يلقي الروح على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق 15، أي يلقي النبوّة والرسالة السماويّة على من يصطفي من عباده نبيّاً ورسولاً، ثم عاد وأكّده مرّة أخرى في سورةٍ الشورى الثانية والستين ترتيباً: «وكذلك أوحينا روحاً إليك، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا...

هذه المفاهيم والمعاني لكلمة «الروح» تكرّرت بعد ذلك في سور لاحقة عديدة، كسورة النحل السبعين ترتيباً، ثم سورة السجدة الخامسة والسبعين، ثمّ المعارج التاسعة والسبعين، ثمّ النبأ الثمانين، ثمّ البقرة السابعة والثمانين، ثمّ النساء الثانية والتسعين، ليصل الأمر إلى سورة المجادلة الخامسة بعد المائة، لتأتي بمعنى ومفهوم جديد، إذ يقول عزّ وجل: «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروح منه «أي أيّدهم بقوّة الحق».

بعدها توقّف الوحي عن استخدام الكلمة...

إذن، جاء القرآن بمعانٍ ومفاهيم محدّدة لكلمةٍ «الروح»، إحداها وليست كلّها قد تعني «جبريل» تبعاً لسياق الآية، فلمَ عزل المفسّرون وأقصوا المعاني الأخرى، واقتصروا على جبريل في تأويلهم لكلمة «الروح» في سورة القدر؟

لكن، أيّ معنى ومفهوم، من بين المعاني والمفاهيم السابقة، هو الأصحّ لتأويل هذه الكلمة في هذه السورة؟ سنأتي على ذلك، لكن دعونا نمعن النظر في الحديث الذي أورده البخاري عن السيّدة عائشة، بتحرّي ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان، لسيادته على الأحاديث الأخرى المتضاربة.

لو كان هذا الحديث صحيحاً، هل كان ليرد من مصدر آحاد؟ هل كان الرسول الكريم ليقصر هذه المعلومة الهامّة التي تحدّد ليلة مباركة سيلتزم بها المسلمون حتى يرث الله الأرض وما عليها، على زوجه فقط، دون باقي المسلمين؟ لمَ لم يرد هذا الحديث عن طريق راو آخر؟ أما كان النَبي ليعلن ذلك لكلّ المسلمين فيأتيناً متواتراً عن آلاف المصادر، دون الاقتصار على مصدر وحيد هو إحدى زوجات النبي، دون غيرها من الزوجات أو الصحابة الآخرين؟

ثمّ، لو صحّ هذا الحديث، أما كنّا قرأنا في كتب الأدبيات الإسلاميّة الكثيرة، ما يفيد بأنّ النبي وأتباعه مارسوا طقوساً وصلوات خاصّة في هذه المناسبة؟

هذا إذن، حديث ضعيف، تبعاً لكلّ فقهاء الحديث، حيث أحاديث الآحاد، حسب هؤلاء، تفيد الظن لا اليقين، فأين هو اليقين؟ وقد أمرنا الله بأن لا نتّبع الظن، وأن نلجأ إلى ما يفيد اليقين...

لن نبادر لإنكار الحديث وتكذيبه أسوة بباقي الأحاديث المتناقضة، لكنّنا سنضعه في خانة الظنّ، حتى نصل إلى اليقين، عملاً بأمر الإله الجليل لنا...

ثمّ، هناك الحديث الآخر، الذي أورده كلّ كتبة الحديث، عدا البخاري (وهذا مدعاة للنظر)، وأهمله الفقهاء، أنّ أهمّ علائم ليلة القدر أنّ الشمس تشرق في الصباح التالي لا شعاع لها...

كان الجهل في ما يخصّ علوم الكون مُطبقاً إبّان القرن الثالث الهجري، حين تمّ تدوين الأحاديث، أو أنّ مدوّني الأحاديث، كما عامّة المسلمين، كانوا بعيدين عن تداول العلوم وإدراكها...

أثبت العلم، بما لم يعد من مجال للشك فيه، أنّ الشمس تشرق على الأرض لا شعاع لها في صبيحة الانقلاب الشتوي WINTER SOLSTICE التي تقع في الثلث الأخير/ السدس الخامس من شهر كانون الأول، حيث تكون في أقصى مدى لها في الجنوب وتسقط أشعّتها متعامدة على مدار الجدي، وشديدة الميل على نصف الكرة الشمالي، الذي يحظى بأقصر نهار وأطول ليل، وفي العام 2010 كان هذا اليوم هو الأربعاء 22 كانون الأوّل...

وحيث أنّ شهر رمضان لا يصادف وقوعه في أواخر كانون الأول إلا مرّة كل حوالى مائة سنة، فثمّة تضارب كبير بين معطيات الموروث الإسلامي والثابت من العلم...

قد يكون رمضان في السنة الأولى للوحي وقع بالمصادفة في شهر كانون الأول، وهذه يمكن تحرّيها بمطابقة التاريخين الميلادي والهجري رجوعاً، ولكنّ ذلك لا يتكرّر كلّ عام، بما لا يمكن معه تدارك هذا التناقض بين الموروث وحقائق العلم...

نعود إلى سورة القدر، لنقول إنّ المعنى الأصحّ للعبارة «تنزّل الملائكة والروح فيها» هو: نزول ملكات العقل والإرادة والحكمة على آدم المصطفى، لتحويله إلى إنسان عاقل مدرك، أيّ بداية عالم الإنسان المكلّف، والليلة التي بدأت قدراً جديداً في الكون، ومرحلة تغيّر فيها وجه هذا الكون ممّا كان إلى ما قدّر الله له، وهي لهذا خيرٌ من ألف شهر، وهو تعبير مجازي لا مدلول حرفي...

نخلص إذاً، أولاً، أنّ سورة القدر لا تتحدّث عن نزول القرآن، ولا علاقة لليلة القدر بهذا التنزيل، ولا بشهر رمضان، وثانياً، أنّ حديث الآحاد المنسوب لعائشة لا يفيدٍ اليقين ولا يصلحٍ للاستدلال به في هذا المقام، وثالثاً أنّ الحديث المتعلّق بعلائم ليلة القدر وشروق الشمس لا شعاع لها، هو أقرب إلى الصحّة، ولا يخالف العلم وحقائقه (حاشا رسول الله عن ذلك) إن عزلناه عن حديث البخاري والأحاديث الكاذبة الأخرى... ولكن، دعونا نتابع الأمر إلى أبعد من هذا... هل من علاقة بين نفخة الروح الإلهيّة لآدم وبين ليلة الانقلاب الشتوي 21 25– كانون الأول وبين شروق الشمس لا شعاع لها؟

ربّما لم يقرأ الكثيرون منّا، أنّ الأساطير والديانات السابقة اعتبرت أنّ بدء الخليقة الإنسانيّة ولحظة نفخ الروح الإلهيّة في آدم (تنزيل الملائكة والروح) تمّ في ليلة الانقلاب الشتوي، واحتفل أتباعها على مرّ التاريخ الطويل رمزيّاً بليلة الرابع/ الخامس والعشرين من كانون الأول، نجد ذلك لدى الديانات الهندية والصينيّة والزرادشتيّة ومعتقدات أميركا الجنوبيّة وغيرها، وبخاصّة لدى قدماء المصريين الذين اعتبروا هذا اليوم ميلاداً لأوزوريس وابنه حورس الذي تطابق لديهم مع آدم أبي الإنسانية، وفي روما القديمة كان هذا اليوم احتفالاً للإله ساتورن، وقيل إنّه كان يعتبر ميلاداً لكلّ من أدونيس وباخوس في الحضارتين الهلنستيّة والرومانيّة، وفي اليابان يحتفلون منذ القرن السابع الميلادي بعيد بزوغ إله الشمس اماتيراسو ويطهون فيه اليقطين، وفي فارس هو عيد إله الشمس أيضاً، وفي الصين هو عيد دونغ زي، وقد جاء الآباء المسيحيون فاعتبروا هذه الليلة هي ليلة ميلاد السيّد المسيح /الكريسماس بقرار من البابا ليبيريوس عام 354 ميلادية، بعد أن كانوا يحتفلون به في الربيع قبل ذلك، ولا يزال العالم كلّه من شرق آسيا حتى غرب أميركا يحتفل بهذه الليلة كلّ عام، وإنْ كان الظن السائد لدى معظم الناس من العامّة أنّها خاصّة بميلاد السيّد المسيح فقط... وهذه الليلة، كما أسلفنا، هي الليلة التي تشرق الشمس في صبيحتها لا شعاع لها، بسبب ميلها حدّاً أقصى عن العمودي على سطح الأرض، واختراق أشعّتها لمسافة أطول في الجو ممّا يجعلها تتعرّض للكثير من الانعكاس على السحب، والامتصاص بفعل غازات الجو، وهو ما لاحظه الأقدمون عبر آلاف السنين، وغفل عنه فقهاء المسلمين رغم أنّ الخوارزمي جاء على ذكرها...

نكون هنا إذن، أمام مفهومين لليلة القدر...

مفهوم موروث إسلامي سائد، ضعيف الدلالات والإسناد، تعارضه حقائق العلم الثابتة، فرضه المفسّرون وألبسوه بالقرآن جهلاً أو قصداً، استناداً لحديث آحاد لا يمكن الوثوق بصدقيّته ولأحاديث أخرى متناقضة، ومفهوم عالمي آخر، قديم جداً يعود لأكثر من أربعة آلاف عام، تدعمه حقائق العلم الثابتة...

والاختيار بينهما يحكمه العقل وحده، لا الموروث، ولا التفاسير المخالفة للعلم...